رحلتي مع الطب النفسي

الدكتور الزين عباس عمارة
بكالوريوس الطب و الجراحة (جامعة الخرطوم)
دبلوم الطب النفسي (جامعة لندن)
عضوية الكلية الملكية البريطانية (المملكة المتحدة)
عضوية جمعية الاطباء النفسانيين الامريكية (الولايات المتحدة)
استشاري ومدير مستشفى الطب النفسي الجديد - أبوظبي(سابقاً)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ
وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

صدق الله العظيم

سورة التوبة آية ١٠٥

الاهداء

الى كل أساتذتي وزملائي وتلاميذي وأبنائي

الى كل الذين وضعوا لبنة في هذا البناء

الى كل أفراد أسرتي الأوفياء

والذين لولاهم لما كان هذا العطاء ممكنا

الزين عيسى

الفهرس

■ افتتاحية ـ كلمة معالي الدكتور عبدالرحيم جعفر ـ المستشار الطبي بدرجة وزير. وزارة الصحة ـ أبوظبي ـ دولة الإمارات العربية المتحدة. ١١

■ المقدمـة: بقلم الكاتب و الاعلامى الكبير البروفيسور على محمد شمو استاذ علوم الاتصال بجامعة أم درمان الاسلامية – الخرطوم، السودان. ١٣

■ **المحطة الأولى: السودان (البداية).** ١٧

عيادة بعشر – الخرطوم بحري. ١٩

عنبر النفسية – مستشفى الخرطوم التعليمي. ٢٢

قسم الأمراض النفسية والعصبية – ود مدني الجزيرة. ٢٦

مستشفى جوبا – المديرية الاستوائية. ٣٠

مركز صحي الخرطوم – الخرطوم. ٣٢

■ **المحطة الثانية: بريطانيا.** ٣٧

معهد الدراسات النفسية – جامعة لندن. ٣٩

منطقة اكسفوردشير. ٤٦

منطقة لنكلنشير. ٤٩

■ **المحطة الثالثة : السودان(طريق العودة).** ٥٩

قسم الأمراض العصبية والنفسية – كوستي. ٦٣

إقليم النيل الأبيض والإقليم الجنوبي. ٦٥

■ **المحطة قبل الأخيرة : دولة البحرين.** ٧٣

مستشفى الأمراض العصبية والنفسية – المنا مـة. ٧٥

العيادة النفسية للأطفال والمراهقين – مستشفى السلمانية. ٧٥

■ **المحطة الأخيرة: دولة الإمارات العربية المتحدة.** ٧٩

العيادة النفسية للأطفال والمراهقين – الصحة المدرسية – أبوظبي. ٨١

قسم الأمراض العصبية والنفسية المستشفى المركزي – أبوظبي. ٩٧
قسم الطب النفسي – مستشفى الجزيرة والمركزي. ١٠٢
مستشفى الطب النفسي الجديد – أبوظبي. ١١٠

■ **مستشفى الطب النفسي الجديد - أبوظبي** ١١٧
■ **نبذة عن المستشفى** ١١٩
■ **وحدات المستشفى** ١٢٣
الوحدات العامة بالمستشفى: ١٢٣
وحدة العيادات الخارجية. ١٢٣
وحدة العلاج النهاري. ١٢٧
وحدة الطب النفسي الشرعي. ١٣٥
وحدة العناية النفسية المركزة. ١٣٦
الاقسام الداخلية: ١٣٨
عنبر العناية المركزة ١٣٨
عنبر الأمن ١٣٨
عنبر الحالات المتحسنة ١٤١
وحدة علاج الاعتماد على العقاقير. ١٤١
وحدة التنسيق وطب المجتمع. ١٥٧
وحدة الطب النفسي للأطفال والمراهقين. ١٦٥
وحدة التأهيل النفسي. ١٦٦
الوحدات التخصصية بالمستشفى: ١٦٩
التوصيف الوظيفي: ١٦٩
الأطباء النفسانيون. ١٧٠
الاخصائيون النفسانيون. ١٧٢
الاخصائيون الاجتماعيون النفسانيون. ١٧٤
الهيئة التمريضية. ١٧٦
قسم الصيدلة ١٧٩
قسم فني العلاج بالعمل ١٨١
قسم السكرتارية الطبية. ١٨٢

برنامج أخلاقيـات الرعاية الصحية. ١٨٤
الوحدات الطبية المساندة: ١٨٨
وحدة التعليم الطبي المستمر. ١٨٨
وحدة ضمـان الجودة. ١٩٠
لجنة ضمـان الجودة واللجان الفرعية التابعة لها. ١٩٤
وحدة السجل المركزي للصحة النفسية. ١٩٦
وحدة تخطيط الدماغ الكهربائي. ١٩٩
وحدة شبكة الانترنت ونظم المعلومات. ٢٠٠
اللجنة المركزية للصحة النفسية ـ وزارة الصحة. ٢٠٢

- البرنامج الوطني للصحة النفسية ـ دولة الإمارات العربية المتحدة. ٢٠٤
- القوانين و التشريعات في الصحة النفسية. ٢١٠
- مجلة الطب النفسي. ٢١١
- دورة فن التعامل مع المرضى ومهارة حل الأزمات. ٢٤٠
- قصـائد حزيـنة ....من أسرة الطب النفسي. ٢٤١
- شهادة الجـدارة والاستحقاق. ٢٤٣
- شهادة البورد العربي للطب النفسي. ٢٤٤
- شهادة الزمالة الملكية البريطانية للطب النفسي. ٢٤٨
- اللجنة الخليجية للصحة النفسية ـ دول مجلس التعاون الخليجي. ٢٥١
- زيارات تاريخية ...شخصيات عالمية. ٢٥٥
- محطـات ...في حيـاتي. ٢٥٩
- استشراف الغد ورؤية المستقبل. ٢٦٠
- صور من الرحلة. ٢٧١

افتتاحية

كلمة معالي الدكتور عبد الرحيم جعفر

المستشار الطبي بدرجة وزير . وزارة الصحة . دولة الإمارات العربية المتحدة.

لقد أعطت وزارة الصحة اهتماما متميزا لخدمات الصحة النفسية منذ بداية السبعينيات، وقد ازداد هذا الاهتمام مع تطور الرعاية الطبية في المستشفيات العامة في بداية الثمانينيات وافتتاح المزيد من المؤسسات الطبية ومراكز الرعاية الصحية الاولية وكان لابد أن ينال الطب النفسي نصيبه من هذه النهضة الشاملة.

وقد كان للدكتور الزين عمارة دور بارز في تفعيل هذه الأنشطة الهادفة إلى تطوير الخدمات النفسية.

فقد شارك في كل اللجان ذات الصلة بالرعاية الصحية ممثلاً للوزارة داخل وخارج الدولة، كما كان له دور فعال في عقد الدورات التدريبية للأطباء والعاملين في حقل الصحة النفسية طيلة فترة عمله الممتدة منذ عام ١٩٧٥ في الصحة المدرسية في أبوطبي وحتى إنشاء مستشفى الطب النفسي الجديد في عام ١٩٩٥.

وقد كنت بحكم مسئووليتي المباشرة من شؤون الطب العلاجي خاصة ثم تسلمي مهام وكيل الوزارة عامة اتطلع إلى تطوير خدمات الطب النفسي، وقد ساعدتني في تحقيق ذلك الرغبة الشخصية للدكتور الزين عمارة في الارتفاع بمستوى خدمات الرعاية النفسية و سعيه المستمر إلى استدعاء الخبراء والأطباء العالميين في هذا التخصص الى الاستفادة القصوى من هذه الخبرات والكفاءات فى وضع التصور الأمثل لخدمات رعاية صحية متطورة تواكب احدث مستجدات العصر الحديث.

ولقد كان إنشاء مستشفى الطب النفسي الجديد في أبوظبي من أكبر الانجازات الطبية في المنطقة العربية بل يتنافس مع مثلائه في أرقى دول العالم اليوم بشهادة الوفود العالمية الزائرة على مدى السنوات الماضية.

إن دولة الإمارات العربية المتحدة قد قطعت شوطا بعيداً في الارتقاء بخدمات الطب النفسي إلى مستويات عالمية في زمن قياسي.

ولابد من الإشادة والتقدير للدور البارز للدكتور الزين عمارة في هذا المجال طوال سنوات عمله الحافلة بالبذل والعطاء.

و نأمل أن تستمر (رحلته مع الطب النفسي) ليضيف مزيداً من الابداع في شتى المجالات.

الدكتور عبدالرحيم جعفر

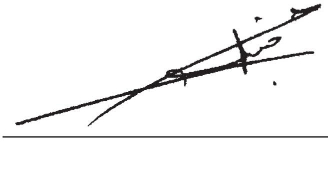

المقدمة

بقلم الكاتب والإعلامي الكبير

البروفيسور علي محمد شمو

أستاذ علوم الاتصال - جامعة أم درمان الإسلامية - السودان

بدأت علاقتي بأخي وصديقي الدكتور الزين عباس عمارة، منذ أن كان طالباً في كلية الطب في جامعة الخرطوم، وكنت حينها مذيعاً في إذاعة أُم درمان.. وقد كان ذلك في بداية الستينيات، وفي ريعان الشباب.. وكنت بحكم طبيعة عملي وعلاقتي بالمبدعين والموهوبين، آتي على كثير منهم وتنمو مع بعضهم صلات وأواصر تختلف من حيث المتانة والقوة والحميمية. وقد تستمر وتمتد، وقد تدوم وتقوى على مر الزمان، كما حدث مع الدكتور الزين.. فالصلة بيننا لم تنقطع. ولذلك فإنني حين أكتب عنه مُقدِّماً له هذا الكتاب، فإنما أتحدث عن قامة شامخة في مجال الأدب والشعر والفنون، تنافس تلك القامة التي تقف على قمم وسفوح العلوم وبصفة خاصة الطب النفسي والخبرات العظيمة المتراكمة على مر الأيام والسنين في مجال الطب النفسي.. وعلى الرغم من أنني في الأصل مُعلِّم بحكم دراساتي الأُولى، إلاَّ أنني أعترف بأنني لست في موقف يمكنني من تقويم قُدرات الزين في مجال التربية والعلوم.. وبالمنطق نفسه، فإنني كاتصالي أتعامل مع وسائل الإعلام، قرابة نصف قرن من الزمان، أجد نفسي في موقف مماثل يحول دون تقويمي للزين كأديب وشاعر.

إنّ القارئ لسيرة صديقي الزين، كما كتبها بنفسه، وبأُسلوب سهل ومباشر، وفيه كثير من الواقعية والتواضُع ليدرك أنه يقرأ سيرة رجل عظيم نفخر نحن في السودان أن يكون من مواطنينا، وتفخر دولة الإمارات العربية المتحدة، بأنها وطنه الثاني، والذي بدأ يُنازعنا في مُواطنة الزين.. عندما اتصل بي الزين من البحرين إبّان أيامه الأُولى في الخليج، سعدت بسماع صوته عبر التليفون بعد طول غياب، وازدادت سعادتي عندما علمت أن ذلك الصوت آتٍ من المنامة، عاصمة أُولئك النفر الكريم، وذلك الشعب المثقف المتواضع الرقيق، الذي هو شعب

البحرين.. وعلى الرغم من معزتي لشعب البحرين ومحبتي لهم وسعادتي لوجود الزين بينهم، إلاَّ أنني واللّه – كنت في غاية الأنانية وحب الذات عندما اتصلتُ بإخوتي وأصدقائي في وزارة الصحة في أبوظبي، وعرضتُ عليهم استقدام الزين لا ضناً مني به على أهلي في البحرين وتفضيل أهلي في أبوظبي عليهم، ولكنني أردت أن يكون الزين معنا في أبوظبي نراه مجسداً أمامنا لنتجاذب معه الحديث، ونستمع إلى أدبه وشعره وتجاربه الثرية في الحياة.. وقد كان لي ما أردت ولست نادماً على ما فعلت – ولكنني مُدين لأهل البحرين باعتذار.

الزين عباس عمارة، عندما نسمع اسمه يتردد في الراديو أو التلفزيون أو منشوراً في صحيفة أو كتاب، نتساءل، وهل الموضوع هو الزين الأديب أم الزين الطبيب أم الزين الأريب، ذلك الإنسان الرقيق الذي يملأ الأُفق بهجة وجمالاً عندما يكون حاضراً بين الأصدقاء.. لقد تصفحت هذا الكتاب، وهو في مراحله النهائية قبل الطباعة فلم أجد فيه ما يدعو إلى إبداء الرأي نقداً أو إضافة، بل على العكس تماماً، فقد كان سفراً كاملاً لسيرة واحد من النابهين الذين تفخر بهم أُمة السودان.. وأُعجبت جداً بتلك الذاكرة الدقيقة التي تذكر نوعاً من التفاصيل قلَّ أن تبقى في ذاكرة الكثيرين وأنا منهم.. ولعلَّ أصدقاء الزين وزملاءه في مراحل الدراسة، ومن بعدها في مجال العمل في السودان وفي إنجلترا وفي البحرين وفي دولة الإمارات العربية المتحدة، يُصابون بالدهشة عندما يجدون بعض المعلومات عن بعض المواقف التي مضت مع الزمن ولم تتردد سيرتها مع الأيام.

عيبُنا نحن في السودان أننا لا نكتب السيَر ولا نروي تجاربنا عبر السنين، ظنّاً منّا أنها حديث عن النفس، بينما هي تراث للأُمة، تستنبط منه الماضي والتاريخ.. فالإنسان عندما يتحدث عن فترة الدراسة أو العمل داخل السودان وخارجه أو الفترات التي يقضيها دارساً أو متخصصاً في أوروبا أو أمريكيا لا يدور حديثه حول نفسه بل حول المجتمع الذي يعيش فيه وما يحدث فيه من أنشطة ووقائع يشترك فيها كل أفراده، بحيث تكون روايتها والحديث عنها بعد مرور الأزمان والحقب جزءاً من التاريخ.

لقد كان الدكتور الزين عباس عمارة في سفره هذا أميناً في سرده لسيرته الإنسانية والعلمية وتجاربه الثرية والمتعددة وعلاقاته مع زملائه وأهله وأصدقائه ومع كل من اشترك معه في الحياة داخل السودان وخارجه.. فقد كتب السيرة بلغة سهلة وموضوعية وشاملة ولم يحاول

أن يُضفي على نفسه ما لا يستحق. بل إن الزين عباس عمارة لكل من يعرفه في أية مرحلة من مراحل حياته هو أكبر بكثير مما كتب عن نفسه.. فتحية له على هذا الجهد... وأرجو من كل مَن يقرأ هذا الكتاب من أقرانه وأترابه وزملائه أن يحذو حذوه ويُسجل للتاريخ سيرته ويقدم لمواطنيه سجلَّه فهو تراث وطني من حقنا جميعاً ومن حق الأجيال القادمة أن تطلع عليه.

المحطة الاولــى

الســــــــودان

(البداية)

■ عيادة بعشر - الخرطوم بحري

عندما تخرجت من كلية الطب بجامعة الخرطوم في أبريل من عام ١٩٦٥, ذهبت في إجازة قبل توزيع أطباء الإمتياز على مستشفيات العاصمة، وما كان يدور بخلدي أي التخصصات سوف تكون في طريقي فكثيرا ما كانت الصدفة تلعب دورا كبيرا في تحديد اتجاهات التخصص لدى الأطباء في ذلك الوقت، ولا أعرف أحدا منا قد وضع نصب عينيه تخصصا معينا فانخرط فيه منذ البداية، وهذا يعود إلى طبيعة (القدرية) في حياتنا في ذلك الزمان منذ دخلنا المدرسة الأولية حتى خروجنا من الجامعة... حتى اختيار الكلية الجامعية كان في كثير من الأحيان أحد لبنات الصدفة فى بناء المستقبل، وليس أدل على ذلك من أنني عندما تخرجت من مدرسة حنتوب الثانوية كنت ميمما وجهي شطر كلية الآداب للحصول على الدكتوراه في الأدب العربي، وانتهى بي المطاف في كلية الطب بجامعة الخرطوم ولهذا قصة منشورة في كتابي «مقالات مختارة بين الطب والأدب – ص٣٢١ –».

عندما وصلت من الإجازة ذهبت إلى مسجل الكلية فوجدت اسمي في قسم الطب النفسي عيادة بعشر بالخرطوم بحري.. وعيادة بعشر لمن لايعرفونها هي العيادة الأولى والوحيدة للطب النفسي في السودان والعاصمة آنذاك منسوبة إلى اسم الطبيب النفسي الجليل والزميل الأكبر البروفيسور طه بعشر، وكانت عيادة خارجية تطورت مع الأيام لتشمل ما يعرف اليوم بالطب النفسي المجتمعي حيث يوجد منزل مؤجر أمام العيادة للمرضى القادمين من الأقاليم أو المنقطعين في العاصمة، كما توجد سيارة تأخذ المرضى وتأتي بهم إلى العيادة للعلاج أشبه بما يسمى اليوم الخدمات المنزلية يشرف عليها مساعد طبي نفسي (العم نصر الدين) وهي أشبه ما تكون بمركز الرعاية الصحية الأولية في المسميات الحديثة حيث ترتبط بمراكز مشتركة مع رجال الدين مثل (أم ضبان) و (الشكينيبة) والحاج يوسف آنذاك.

عودا على بدء ... سألت مسجل الكلية مستفسرا لماذا حولني إلى النفسية فقال لي: إن أحد أطباء لجنة الإختبار قال اعطونا هذا الشاعر وكان يعني الزميل الراحل الدكتور حسبو سليمان نائب الدكتور طه بعشر.. ورغم فرحتي بشرف الاختيار الا أنها لم تكن في أولوياتي، وقد كنت أعلم أن البروفسير داوود مصطفى كان يرغب في الحاقي بالباطنية، وكانت أقرب التخصصات الى نفسي ومفهومي في ذلك.. فالتقيت في طريقي في الخارج بالبروفيسور داوود مصطفى أستاذ الطب الباطني والأعصاب المشهود له بغزارة العلم وحب المعرفة ودقة الملاحظة.. فقال لي: كنت أريدك في الباطنية وطالما اختاروك للنفسية إياك أن تعود وتقول لي لقد أحببت هذا التخصص وقد حدث.. ومنذ ذلك التاريخ وأنا أحس بالحرج الشديد وأتفادى

مقابلة البروفيسور داوود مصطفى خوفا وحياء.. وحبا ووفاء.. وشعورا بالذنب خشيت أن يسألني لماذا أخلفت وعدك؟ والواقع أنني لم أخلف الوعد ولكن عدة معطيات جرتني إلى هذا الطريق منها أن علم الأعصاب كان احد التخصصات الدقيقة فى الباطنية المشهور بها البروفسير داوود وكان دهليزا مظلما لا ينيره إلا ذهن البروفيسور داوود الوقاد بنور معرفة متميزة بين الأطباء... وكان مجموعة من الطلاسم والألغاز وتقنيات التكنولوجيا الحديثة تعتمد على طب الحواس...التي لم تكن متوفرة إلا عنده حيث كان يتابع العلة من الأصل إلى الفرع في مسار جغرافية المخ البشري، أشبه بالإعجاز... الى جانب اننى كنت قد كونت في فترة عملي في عيادة بعشر مجموعة علاقات إنسانية في مجال الصحة النفسية فتحت لي دهاليز جديدة في عالم النفس الذي كان محجوبا عنا في دراستنا القاصرة له في مناهج الكلية شأن كل كليات الطب في العالم العربي... حيث يخرج الطبيب و قد لا تتاح له فرصة الاطلاع على علم النفس بصورة تحببه فيه او تشده اليه و قد يواجه الحياة العملية و هو لا يعرف الفارق بين الطب النفسي وعلم النفس، ولا يزال هذا الواقع المحزن يلقي بظلاله على مناهج كليات الطب في معظم البلاد العربية، ناهيك عن الفارق بين الروح والنفس والجسد والعلاقة بينها، وكنت في فترة عملي قد دخلت الإذاعة والتلفزيون عندما رشحني الأديب الراحل الأستاذ أبو عاقله يوسف وكيل وزارة الإعلام فى ذلك الوقت لكي أكون عضواً في لجنة النصوص للأغاني بالإذاعة والتلفزيون السوداني لامثل جيل الشباب حيث كانت تواجه اللجنة عاصفة من الهجوم والتجهم من الشعراء والفنانين يشتكون من قسوة أحكامها وقوة أعلامها أمثال الشاعر الكبير إبراهيم العبادي وعمر البنا و محمد المهدي مجذوب والأستاذ حسن بخيلة، وقد كتبت عن هذه التجربة الثرة والفريدة في كتاب (أضواء على النفس البشرية) ص١٧٥.

في نفس الفترة الزمنية كنت قد حظيت بمعرفة الإعلامي البارز والعلامة الموهوب ذي النظرة المتميزة والفكر المتقدم في مجال الإعلام الاخ البروفيسور علي شمو أطال الله عمره والذي كان مديرا للتلفزيون فطلب مني أن نقدم برنامجا توعوياً عن الحالات النفسية خاصة وانه كانت له اهتمامات بعلم النفس، وقد لاحظ من اطلاعه الواسع في مجال الاعلام أن هذا العلم لا يحظى باهتمام علمي، ولكنه يكاد يشغل مساحة كبيرة في البث الاعلامي بلا رقيب ولا تنوير وأنه قد لاحظ أن كثيراً من المسلسلات والافلام تتجنى على الحقيقة في عرضها للموضوعات النفسية في غياب البديل الموضوعي الذي يطرح الرؤى و وجهات النظر العلمية في هذا المجال، وكان هذا النقاش يدور ونحن نستقل الباص من الخرطوم إلى «العيلفون» لحضور مراسم زواج قريبه وزميلنا الدكتور أحمد شمو... وبدأت بالتشاور مع الزميل الأكبر الدكتور طه بعشر والذي

كنت أعمل متدرباً معه وناقشنا الفكرة وعنوان البرنامج وقد كان متحمساً له ومباركاً ومشاركاً اساسياً في كل حلقات البرنامج واطلقنا عليه اسم (أضواء على النفس البشرية)، وكان أول برنامج تثقيفي يقدم صفوة الأطباء النفسانيين العاملين في حقل الصحة النفسية وقد شارك فيه جميع الاخصائيين في العاصمة المثلثة.

لقد كانت فترة عملي في تقديم البرنامج التلفزيوني والاشتراك في اجتماعات لجنة النصوص والالحان بالاذاعة السودانية فترة حافلة بالعطاء والوفاء مع العاملين فى هذه الاجهزة الحيوية في الدولة، فهي لم تكن فرصة للتعلم ونضوج التجربة فقط بل كانت مدرسة تتلقى فيها دروساً من الحياة من شرائح متنوعة الامكانيات متعددة المواهب وتغطي مساحة واسعة من تراث الشعب السوداني.

فقد تعرفت على الصفوة من الأدباء والشعراء والفنانين والممثلين والمخرجين والروائيين وكتاب القصة وشتى صنوف الآداب والفنون وإذا عرفنا ضيق رقعة الاعلام في تلك الفترة فاستطيع أن أقول إنني أصبحت جزءاً من الأسرة الاعلامية واذكر بكثير من الفخر و الاعتزاز أنه في حفل زواجي في ٣١ مايو ١٩٦٦ عبر كل الفنانين والعازفين رغبتهم في مشاركتي الأفراح في هذه المناسبة، ولما لم يكن هنالك مكان يتسع لهذا (المسرح القومى) كما كان يسميه زميلي الاكبر واستاذي الدكتور الحارث حمد أقمنا الحفل في ميس الأطباء المقابل لمستشفى الخرطوم بحري ولم يتخلف فنان أو مطرب واحد من المتواجدين في العاصمة المثلثة ومن غير المرتبطين خارجها ولم يأخذ أى منهم أجراً أو ينتظر شكراً وفيهم من اسهم مادياً و معنوياً في نفقات الحفل.

وقد استمر الحفل حتى الصباح بالتوقيت وشروق الشمس مع افتتاح بوابه المستشفى، وقد غنى الجميع بدءاً بالفنانة صاحبة الحنجرة الذهبية الراحلة (عائشة الفلاتية) بناء على رغبة الزميل الكبير الدكتور موافي عبدالفتاح وكيل الوزارة أنذاك إلى اخوان الصفا ثنائي العاصمة أبناء بحري ومطرب الاسرة ابن العائلة الفنان علي ابراهيم اللحو والذين آثروا اتاحة الفرصة للفنانين الضيوف !! على أن يواصلوا هم في صباح اليوم الثاني وقد كان.

أردت أن أقول إن كل هذه المعطيات جعلت عودتي إلى الطب النفسي الباطني والأعصاب خطوة قاسية تحتاج إلى قدر كبير من الشجاعة وقدر أكبر من الحكمة، وكان هذا سر هروبي من

البروفيسور داوود مصطفى... وتشاء نفس الصدفة أن أنتقل من فترة الإمتياز في عيادة بعشر إلى فترة الإمتياز في أمراض النساء والولادة مع الأستاذ الجليل الراحل الدكتور الحارث حمد اختصاصي أمراض النساء والولادة بمستشفى الخرطوم بحري، وكانت هذه آخر مناوبات فترة الإمتياز فبقيت فيها أكثر من سنة مع الزميل الدكتور عثمان سوركتي الطبيب الثاني. وكنا ثلاثة نتحمل عبء خدمات أمراض النساء والولادة في الخرطوم بحري وضواحيها... ويستطيع المرء أن يتخيل العبء الذي كنت أقوم به في خلال هذه الفترة ورغم قسوتها فقد سعدت بها وشعرت فيها بنوع من الراحة النفسية والرضا الذاتي حيث يرتبط اسمك بميلاد طفل...وسعادة أسرة...وفرحة قبيلة من القرى الكثيرة الواقعة في ريفي الخرطوم بحري وما يزال كثيرون من الأمهات والشبان والشابات يذكرون أنني شاركت في علاج الأم أو ولادة الطفل ومنهم من حمل اسمي ومشى بذكرى مع الركبان... وهذا ما افتقدته في العيادة النفسية حيث يستنكف المرء أن يذكر اسم طبيبه النفسي ويتحاشى ملاقاته أو الحديث عنه إلا ماندر... ولكن لماذا؟ هذا ما سأتناول جانبا منه في حديثي في هذا الكتاب وبدأ ينتابني شعور ويتنازعني إحساس غريب حول الاستمرار في التخصص في أمراض النساء والولادة أم العودة إلى العيادة النفسية.. مصدر الصراع.. العلاقات القائمة بيني وبين برنامج التلفزيون ولجنة نصوص الأغنية والود النائم داخلي تغذيه حبل المشيمية الذي يربطني بآلاف الأسر في بحري والألفة والمودة والشعور بالإعتزاز وأنا الطبيب المبتدئ و الذي اكتسب اهمية الاخصائي في غيابه وهو يتجول في العنابر باسم أخصائي أمراض النساء والولادة في غياب الاخصائي الاكبر الدكتور الحارث حمد.. وقد شدتني هذه الهالة من بريق الأضواء والصيت الحسن حتى كبرت في ذهني.. يقعدني عنها ويعوقني فيها سهر الليالي الطويلة وولادات الفجر المرهقة كل يوم...

إن أكثر ما دفعني إلى ترجيح كفة الطب النفسي على طب التوليد قسوة المناوبات وكثرة النداءات آناء الليل وأطراف النهار.. والمناوبة تعني السهر كل الليل والنداء يعني حدوث طارئ يفصل بين الموت والحياة.

■ عنبر النفسية - مستشفى الخرطوم التعليمي

طوال الفترة وفي مناجاة داخلية وتحليل ذاتي أكثره في اللاوعي قررت العودة للعيادة النفسية حيث أجد نفسي رغم العطاء بلا مقابل مادي أو معنوي إلا ما تمثل في حالة التنفيس العقلي والرضاء الذاتي في المزاوجة بين الطب والأدب.. لقد وجدت في قدرتي على الكتابة عن الطب النفسي في الصحف..والتعبير في الإذاعة.. والمشاهدة في التلفزيون دوافع نفسية تشدني إلى هذا

التخصص، وقد وجدت نفسي في كل هذا في مرحلة لاحقة من حياتي العملية في دولة البحرين ودولة الإمارات العربية المتحدة.

أول ما وصلت إلى العيادة النفسية في بحري عينني الدكتور طه بعشر في وظيفة (حكيمباشي) العيادة.. وهذا المفهوم الإداري كان له توصيف وظيفي يختلف حسب الوحدة ولكنه مفهوم في الهيكل التنظيمي لوزارة الصحة ليس هنا مجال الحديث عنها، ولكنها كانت بعض المغريات لطبيب مبتدئ يبحث عن ذاته في كل الزوايا، فقد تعلمت من هذه الوظيفة كيفية إجراء الحوار واتخاذ القرار وفن التعامل مع الآخرين داخل وخارج العيادة.. وخلقت لي كينونة داخل العيادة أكسبتني حب الآخرين وحببت لي دراستي ورفعت من قدراتي ومهاراتي الذاتية دون أن تعوق خبراتي الإكلينيكية التي ظلت محدودة في العمل في العيادة الخارجية حتى تم افتتاح قسم النفسية في مستشفى الخرطوم تحت إشراف البروفيسور الراحل حسن الحاج علي وكان بمثابة الوحدة الداخلية للعيادة الخارجية بالخرطوم بحري والوحدة التعليمية لطلاب كلية الطب بجامعة الخرطوم.

وبعد اتساع نشاط العنبر بصورة أشبه بما تسمى الآن بوحدة الطب النفسي فى المستشفى العام.. حيث كانت هنالك عيادة خارجية وأسرة داخلية ودورات تدريبية وشهد أول نشاط الفريق العلاجي المتكامل من طبيب نفسي واخصائي نفسي واخصائي اجتماعى وممرض نفسي وتوسعت رقعة النشاط لتشمل التحويل من الأقسام النفسية في الأقاليم، وقد تعلمت من هذا العنبر أهمية أن يظل علاج المريض في البيت ويكون السرير البديل والأخير في حالات الطوارئ والتدخل في حل الأزمات والضرورات الإكلينيكية لتدريس طلاب كلية الطب.

وكان على صغره وقلة الكادر الطبي فيه يستوعب حالات الأمراض النفسية المختلفة في بلد المليون ميل مربع مما يؤكد أن توفير الأسرة وبناء المستشفيات النفسية تقود إلى ظاهرة الإزمان وصعوبة التأهيل فى ضرورة عودة المريض إلى المجتمع كما وضح في دراسات وتوصيات وتجارب لاحقة.

وكان في هذا الوقت بالذات قد بدأت في بريطانيا صحوة هدم المستشفيات القديمة والمصحات العتيقة المأهولة بآلاف المرضى المزمنين، وكان قد طرح في البرلمان الانجليزي خطة وزير الصحة البريطاني أينوك باول عام ١٩٦٢ والتي تنادي بهدم المستشفيات وبناء وحدات

نفسية صغيرة داخل المستشفيات العامة... الشيء الذي لم يتحقق في بداية الثمانينيات مما يدل على صعوبة إتخاذ مثل هذا القرار في وجود آلاف المرضى الذين أصبح المستشفى يمثل البيت البديل والأسرة الأولى التي يلجأون إليها وتقطعت سبل إتصالهم وصلة رحمهم بالمجتمع...

لا بد ومن المهم أن نذكر أن خدمات الطب النفسي الشرعي المتمثلة في السجون والإصلاحيات كانت تقوم في مصحة كوبر ليست فقط لأنها موجودة في حي كوبر الشهير ولكنها متصلة ومنفصلة عن سجن كوبر الشهير ولكنها منفصلة عن سجن كوبر العتيق والذي كان يضم المرضى العقليين مع عتاة المجرمين.. فتم إنشاء المصحة كإصلاحية للأحداث الجانحين الذين لا يمكن استيعابهم في السجن ولا يمكن رعايتهم في المجتمع وقد صدر بحقهم حكم قضائي أو قرار طبي من العيادة النفسية.

ولعل هذه الخطوة تعتبر طفرة نوعية في خدمات الطب النفسي في بلد أفريقي كالسودان في بداية الستينيات حيث كانت توجد (اللجنة القومية للصحة النفسية) تضم مدير السجون إلى جانب كبير الأطباء النفسيين وبعض رجال القانون وعلم الإجتماع.

وقد تطورت فكرة المصحة إلى دار التأهيل وهو التدرج الطبيعي للفكرة في مسارها الصحيح، وقد تهيأت لي فرصة زيارة المصحة في عام ٢٠٠٠ لأول مرة بعد أن تركت العمل وسافرت إلى بريطانيا في ١٩٧٠ للدراسات العليا في الطب النفسي بجامعة لندن والحق يقال لقد لاحظت تطوراً نوعياً في مفهوم التأهيل وبداية برامج تسير فى هذا الاتجاه و تحتاج للدعم و التوجيه.

لقد بدأت التدريب العملي المتكامل بالفريق العلاجي بعد أن كان متقطعا على قلته للأطباء النواب الذين التحقوا بعيادة بعشر للتأهيل قبل السفر إلى بريطانيا للتخصص.. وكنت أول طبيب يلتحق في الفترة الأولى للامتياز ويعمل كطبيب مبتدئ في عنبر الطب النفسي كوحدة تعليمية للتأهيل للسفر إلى بريطانيا.

كنت في ذلك الوقت قد خطوت شوطا بعيدا في السير في الطريق الطويل للوصول إلى بطاقة التأهيل للدخول في المنافسة والتي وصلت حدا من الزحام حول هذا المورد العذب والذي أصبح ولاول مرة مشروطاً بدخول الإمتحان الكتابي والشفوي.

رزقنا في ١٣/٤/١٩٦٧ بابني الأول (نادر) واهديته ديواني الاول (الضياء و الحريق) والذي صدر عن دار الثقافة في بيروت عام ١٩٦٨ و كتبت في الاهداء... «عسى أن تتفتح عيناه على بساطة حديثي وجهدي المتواضع فيكمل الخطوات التي لم امشها و يكتب الكلمات التى لم تر النور..» و الآن وقد أكمل تخصصه مثلي في الطب النفسي في بريطانيا أسال الله أن يوفقه في اكمال الخطوات وكتابة الكلمات التي تنتظره من(رحلتي مع الطب النفسي).

لم يشفع لي هذا الزمن الطويل من العمل التدريبي المتواصل في (عيادة بعشر) ولا البرنامج الأسبوعي التلفزيوني الذي كاد أن يغطي كل أنواع الأمراض النفسية في ندواته المتسلسلة على مدى عامين واستضاف كل الأطباء النفسيين العاملين في حقل الصحة النفسية بالسودان ومن سوء الطالع ظهر موضوع (مناطق الشدة) فكان على المتقدمين للسفر إلى البعثات الخارجية شرط العمل في مناطق الشدة وقد حددتها الوزارة بمعايير معينة في جغرافية الوطن الكبير لسد النقص في الكادر الطبي في كثيرمن مناطق السودان.

في عام ١٩٦٦ والعنبر يشهد بداياته عاد إلى السودان الأب الكبير العلامه الراحل البروفيسور التجاني الماحي والذي كان يشغل منصب خبير منظمة هيئة الصحة العالمية لأقليم شرق البحر الأبيض المتوسط بالاسكندرية ولم أكن قد سعدت بلقائه أو العمل معه، فعاد والتحق كأستاذ بكلية الطب جامعة الخرطوم وحضرنا له بعض المحاضرات، فقد كان رجلآ موسوعي المعرفه معروفا بالحكمه متفرداً بطلاقة اللسان وإجادة اللغتين العربية والانجليزية محباً للعلم حتى أنني أستطيع أن أؤكد أننى ما التقيت به إلا وفي يده كتاب أو يتأبط بضعة كتب.

فسألته مرة إن كان يشاهد (أضواء على النفس البشرية) فقال: نعم يسعدني تعدد منابر التثقيف الصحي ونشر الوعي بالطب النفسي فهو جديد على الناس ومغلوط في أذهانهم ومخلوط بالأساطير والخرافات فنصيحتي لكم ركزوا على تصحيح و تنقيح ثم محاربة ما يشوش الوعي ويحجب بصيره الناس و يزيل غشاوة عيونهم، ولا تكثروا من الحديث عن حلقات الزار فهي أُصلاً راسخة في وجدان الناس فيزدادون قناعة بإمور الشعوذة طالما بقيت يتناولها الأطباء في التلفزيون. فللأطباء مكانتهم وللتلفزيون تأثيره، وابتعدوا عن الوعظ والمخاطبة المباشرة، فهذه ليست مهمة الطبيب، ولكن عليك ياابني العمل في العنبر مع المرضى ولا تنفق وقتك في العيادة الخارجية، تحرر الوصفات الطبية مع أهمية هذا النوع من الممارسة العملية، لأن علاقه

الطبيب بالمريض من أهم أركان التعليم بالوسيله العلمية السليمة المباشرة فتستطيع أن تتعلم من المريض أكثر مما تجده في بطون الكتب، فالكتاب يعطيك نظريات قد تكون قابلة للتطبيق أو لاتكون، ولكن المريض يفتح عينيك على خبرات جديدة ويصقل حواسك بمهارات مهنية متميزة.

عقد في هذه الفترة مؤتمر الطب النفسي الافريقي في الخرطوم وحضره من الشقيقة مصر وفد برئاسة الاستاذ الدكتور عمر شاهين رئيس قسم الطب النفسي بالقصر العيني بجامعة القاهرة والدكتور أحمد عكاشة، ومن نيجيريا البروفيسور لامبو من جامعة (ابادان) وآخرون، وقد اقيم حفل استقبال على سطح الباخرة أمام فندق (جراند هوتيل)، وقد تعرفت في هذا اللقاء عن قرب على البروفيسور عمر شاهين والدكتور أحمد عكاشة و نشأت بيننا علاقة شخصية وعلمية، كان لها أثركبير في حياتي، واستمرت اللقاءات العلمية المختلفة في المستقبل داخل وخارج الوطن العربي وحتى هذا اليوم خاصة مع الدكتور أحمد عكاشة وبعد رحيل البروفيسور عمر شاهين رحمة الله عليه.

لم يمض وقت طويل على انخراط البروفيسور التجاني الماحي في التدريس لنا في مرحلة الامتياز حتى حدث ذلك الشجن الحزين ذات يوم وهو يحاضرنا عن الطب النفسي في قاعه كلية الطب ونحن نصغي في صمت رهيب إلا وبدأت كلماته تتثاقل في لسانه و صوته يتهدج وخطواته تتأرجح في المنصة جيئة وذهاباً.

حاول أن يجلس على المقعد بصعوبة بالغة، وهنا أدركنا أنه يعاني من ضعف مفاجيء وهرعنا إليه و هو يجد صعوبة في الكلام وبدأ يتشبث بالكرسي في إيماءة بأنه سوف يستجم ويواصل.

فاستدعينا الدكتور حسن حاج علي من عنبر النفسية ليقنعه بالذهاب الى المستشفى وفي أثناء نقله الى القسم الجنوبي ونحن نغالب هول الصدمة التفت إلي قائلاً: أين كتبي؟ وقد كتبت عن هذه المأساة في كتابي الذي أهديته إليه بعنوان(مقالات مختارة بين الطب والأدب).

■ قسم الأمراض العصبية والنفسية - ود مدني الجزيرة

في هذه الفتره بدأ التفكير في افتتاح قسم للطب النفسي في مدينة (ود مدني) وكان الترشيح لرئاسة القسم بين الزميل الدكتور أمين علي نديم والزميل الدكتور عثمان عبده وكنا كثيراً ما نجتمع وننفض دون الوصول الى اتفاق لأن العمل خارج العاصمة كان لا يستهوي الكثيرين

من الأطباء، ولم يكن يوجد خارج العاصمة الا قسم واحد في بورتسودان تحت إشراف الزميل الدكتور الطاهر عبدالرحيم الذي عشق ذلك القسم وعشق من خلاله مدينة الثغر ولم يفارقه رغم المغريات حتى فارق الحياة بين يديه في محرابه المقدس.

وعندما احتدم الأمر حول من يفتتح القسم في مدينة (ود مدنى) تدخل الدكتور حسيو سليمان ببراعته في وقت الازمات وحل الصراعات و اقترح ذهابي إلى ود مدني مؤقتاً حتى تتبلور الصورة واضحة في تحديد الاخصائي الذي توكل إليه المهمة بعد أن يكون القسم قد اصبح حقيقة واقعة. . وبدأ العمل.

وكان هذا الاقتراح في نظري ميلاد فرحتين ..الاولى إنني سأكون أول من يفتتح القسم في مدينة في حجم عاصمة الجزيرة (ود مدنى). والثانية انتابني شعور بأن يكون هذا الانتداب بمثابة البديل الموضوعي للسفر الى مناطق الشدة كشرط أساسي للبعثة الدراسية واتضح فيما بعد أنه كان وهما من خيال فهوى.. المهم أنني لم أُفسد فرحة الحلم الذي عشت عليه فحزمت حقائبي و سافرت الى ود مدني، وهنالك وجدت القسم في مبنى خارج أسوار المستشفى قائما بذاته ليس كمنشأة لذات الغرض، ولكنه من باب الاستغلال الأمثل للامكانيات المتاحة وقد زاد هذا من حماسي للعمل ودفعني إلى التحدي وجعل مني رقما ذا دلالة بين رفاقي من عمالقة الدفعة على سبيل المثال الدكتور شوقي المصري والدكتور كمال عربي وأمثالهما الذين يعملون مع عمالقة الاخصائيين مثل الدكتور محمد محمود كبير الجراحين والدكتورصلاح عبدالرحمن علي طه كبير أطباء الباطنية والدكتور عوض محمد أحمد (القون) كبير اخصائيين أمراض النساء والولادة.

كنت الطبيب العمومي الوحيد في قسم الطب النفسي ... أذكر في أول مرة التقيت فيها بالدكتور محمد محمود قال لي: أنت الاخصائي الجديد؟ قلت له : لا أنا طبيب عمومي قال: أنا افتكرتك دفعة (نديم) شايفك طالع نازل في التلفزيون قلت له :أنا تلميذه قال : (طيب جاي بداله كيف؟) قلت له : جئت أحضّر المكان قال :(هي بعثة حج ؟) و هنا ضحك الجميع. يشهد الله إن الدكتور محمد محمود كان أبا رحيماً وأخاً عظيماً وصديقاً حميماً طوال فترة عملي معه وقد نشأت بيننا علاقات أُسرية وصلت درجة أصبحنا نذهب بأُسرتنا سوياً إلى السينما في ود مدني وكان هذا في حد ذاته شرفاً كبيراً في ذلك الزمان حيث كانت المسافة بين الاخصائي (الأب والمعلم) والطبيب العمومي (التلميذ والمتعلم) مساحة خرافيه من الحب والرغبة والخوف

والرهبة وعواطف اخرى من التقديرما زالت من أخلاقيات المهنة وموروث العمل في الاعتزاز بهم و الانحياز لهم والتعامل معهم حتى خارج نطاق العمل.

إن ما قاله الدكتور محمد محمود يرسم صورة كاريكاتورية مبسطة توضح طبيعة نظرة زملاء المهنة من التخصصات الاخرى، ومازالت سائدة لدى البعض الآخر ولعل هذا يؤكد ضرورة التوسع في تدريس مناهج الطب النفسي وزيادة الساعات المعتمدة في المساقات الجامعية و زيادة مساحة التطبيق الاكلينيكي في فترة الامتياز مما يبدو أكثر وضوحاً جيلا بعد جيل.

وعودة إلى انشاء القسم فقد استلهمت تجربة الانفتاح على المجتمع ورجال الدين التي بدأها الدكتور طه بعشر في عيادة بحري في قرية(أم ضبان) فتعرفت على الشيخ الجليل المكاشفي في قرية (الشكينيبه) في ضواحي ود مدني وقد نشأت بيننا صلة حميمة في مجال علاج المرضى النفسيين، وقد زرت القرية عدة مرات واتفقنا على التعاون فيما بيننا في تصنيف وعلاج هؤلاء المرضى روحياً و كيميائياً حسب نوع الحالات الموجودة في الدار الخاصة له بهم حيث يتلقون شتى طرق العلاج الروحي منه. و قد كانوا باعداد كبيرة وبقناعات لايمكن معها أن يقبلوا مراجعة الطبيب النفسي.

فاتفقنا على زيارتهم في داره العامره كل يوم جمعة في بداية الامر حيث نتناول معه طعام الافطار ثم نستعرض معاً الحالات، وقد كان رحب الصدر واسع الأفق، وقد كنا نصنف حالات الفصام والاكتئاب والصرع أو الهستيريا وأيا منها يحتاج إلى جرعات من العلاج الكيميائي إلى جانب العلاج الروحي، فأصبحت أكثر الحالات العصابية كالهستيريا والوساوس من نصيبه وحالات الفصام والاكتئاب من نصيبي، أما حالات الهستيريا فكانت القاسم المشترك. وكانت هذه أشبه بالعيادة النفسية التي يجري فيها فحص وفرز الحالات التي يمكن أن تعالج داخل أو خارج المستشفى وهو ما يمثل طب المجتمع أو الطب الوصلي في الوقت الحاضر.

ولكن وفي كل الحالات كان لابد للمريض من أن يتلقى قراءة القرآن الكريم على الدواء (العزيمة) قبل ان يتناوله او يستمر في تعاطيه. و كان لا يمكنه من فرط حبه للشيخ واعتقاده فيه و ثقته به ان يتوقف عن تعاطي الدواء الا بالرجوع اليه والسماع منه، وكان الشيخ ينصحه بمراجعتي في ود مدني وإن لم يجدني يبقى فيها حتى أعود من الخرطوم حتى وإن كان احد الزملاء يغطي عيادتي في غيابي وقد يضطر إلى السكن مع الاقارب عدة أيام حتى تبلى الورقة

المحول بها لي أو تهتريء مع بقية اشيائه.

وعندما اعود إما أن أزيد له الجرعة أو أكرر له العلاج أو أغير له الدواء وفي كل الحالات لن يبدأ الفعل إلا بعد مراجعة الشيخ وأخذ مباركته. و هكذا كتب لهذه التجربة النجاح، وقد كتبت عنها في كتابي (أضواء على النفس البشرية) والذي صدر عن دار الثقافة فى بيروت عام ١٩٨٧.

إن هذا المنهج يمثل الاتجاه الحديث في طب المجتمع وسبل التأهيل والانتظام في العلاج وحل إشكالية الثقة بين الطبيب النفسي والمعالج الديني والتي كثيراً ما يقع ضحية لها المريض، ومازالت هذه الإشكالية تعيق مسيرة الانفتاح للطب النفسي داخل المجتمع لمحاربة وصمة المرض النفسي، وهذا ناتج عن التشدد بين طرفي العلاج وضعف الثقة وعدم الرغبة في الوصول إلى قواسم مشتركة هي من أبرز سمات الفريق العلاجي في أرقى المؤسسات النفسيه وكانت إضافة لها دلالات كثيرة أولها بناء جسور التعاون المزدوج بين طب الروح وطب الجسد وثانيها كسر الحاجز النفسي القائم بين (الفكي) والطبيب النفسي دون إخلال بأخلاقيات المهنة أو تشويه مبادئها ودون مساس بالمعتقدات الروحية وبناء جسور الاحترام المتبادل، وما زالت هذه التجربة ماثلة أمامي وقد الهمتني الكثير في تجاربي العملية اللاحقة في منطقة الخليج العربي أرجو ألا يتبادر الى ذهن القارئ أنني أدعي أن هذه كانت منطلقاتي في ذلك الوقت.

وأنا مازلت في بداية الطريق، ولكن قد استهوتني الفكرة من أستاذي الجليل الدكتور طه بعشر والذي قطعاً كان بصيراً عالماً بكيفية كسر الحاجز النفسي وبفلسفة الفكرة ولكنني كنت مسكوناً بهاجس الوصول بخدمات الطب النفسي إلى المرضى وكانت هذه البوابة الكبرى واقصر الدروب للوصول إلى هذا الهدف النبيل.

وقد أدى هذا التعاون الى تطوير خدمات الطب النفسي على عدة أصعدة حيث وفر لنا موارد مالية نستخدمها في بناء الاقسام الداخلية. فقد كان قسم الخدمات الاجتماعية بإدارة مشروع الجزيرة بمدينة (بركات) يقوم بصرف معونات مالية للمزارعين. وكان من الطبيعي ان تكون للشيخ المكاشفي مكانة خاصة وكلمة مسموعة وسط المسئولين، فقد اقنعهم بصرف هذا المبلغ في إنشاء وتحسين قسم الامراض النفسية التابع لوزارة الصحة وكان هذا في حد ذاته اشهاراً شرعياً للقسم وخطوة جديدة في اسلوب التعاون بين الادارات خلقت صحوة في فكر وزارة الصحه التي باركت الخطوة ورأت فيها إشارة إلى ضرورة تفعيل دورها في خدمة هذا المولود الجديد، فأرسل وكيل الوزاره آنذاك المرحوم الدكتور عثمان عبدالنبي رسالة عاجلة يطلب

تخصيص سيارة خاصة للقسم من (اسطول) المستشفى فأستدعاني الدكتور محمد يوسف العوض حكيمباشي صحة المديريه وطلب مني الحضور إلى مكتبه وعندما وصلت إليه قال لي: (خُذ كل الاسطول!!!) وكان يشير إلى سيارته الواقفة أمام المكتب وكان الرجل على حق إذ لم يكن هنالك اسطول وكنت أعلم ذلك ولكنها طاعة أولي الامر منا وفي العام التالي وصل الزميل الاكبر الدكتور أمين علي نديم لرئاسة القسم وقد ظلت تجربة العمل في ود مدني نقطه بارزة ومحطة مهمه في مطلع حياتي العملية شكلت لي الاطار العام الذي اتحرك فيه وخلقت لدي روح المبادرة الضرورية في اتخاذ القرار والقدرة على تحمل تبعات القرار وعلمتني كيف تكسب ثقة واحترام الآخرين.

■ مستشفى جوبا - المديرية الأستوائية

في عام ١٩٦٧ تم نقلي إلى الخرطوم تمهيداً للعمل في مناطق الشدة وهكذا تبدد الحلم الذي كنت أعيش فيه ظنا –وبعض الظن إثم– أن فترة عملي في ود مدني قد تشفع لي وترفع عن كاهلي عبء شرط العمل في مناطق الشدة وقبل سفري عرفت الاتجاه داخل القسم لاجراء امتحان للمتقدمين للسفر للتخصص ببريطانيا وكانت هذه أول مرة يعقد فيها امتحان للطب النفسي حيث يندر عدد المتقدمين إليه أو الراغبين فيه.

جلست للامتحان ونجحت فيه وأخذت وعداً من وكيل الوزارة الدكتور عباس مختار بأن تؤخذ نتيجتي في الامتحان بعين الاعتبار في أي امتحانات لاحقه وتم نقلي إلى مستشفى (بور) في جنوب السودان في المديرية الإستوائية وعاصمتها (جوبا) وعبثا حاولت البقاء حتى تتهيأ لنا فرصة السفر وكانت من الناجحات معي الدكتورة سميرة داوود إسكندر والتي اختصرت مشوارها وذهبت إلى قسم الاشعة والدكتور عبدالمنعم محمد نور والذي ذهب إلى قسم الصحة العامة ويعمل الآن مستشاراً في الطب الوقائي في وزارة الصحة في دولة الإمارات وبقيت (مثل السيف وحدي) كما قال شاعرنا الاستاذ أحمد محمد صالح وأصبحت قصتي مع الطب النفسي أشهر من قصة (قيس و ليلى).

في عام ١٩٦٨ حزمت حقائبي وركبت الطائر الميمون مع زوجتي وابني(نادر) إلى مطار (جوبا) قابلني بالمطار عدد من الاطباء والضباط يتقدمهم الراحل اللواء أحمد الشريف الحبيب قائد القياده الجنوبية وسعدت بهذا اللقاء الحاشد لاكتشف أن (جوبا) كانت تعيش حالة حصار وأن استقبال الطائرة السودانيه كان متنفساً طبيعياً للملاقاة والتقاط أخبار الخرطوم حين تصل الصحف وأخبار الأهل في الشمال وكان هذا الاستقبال الاحتفالي احد اللقاءات الأسبوعية لكوادر

العاملين في جوبا وقد انخرطت فيه فيما بعد.

وبعد التحية والترحاب سألني القائد: ماشي وين باولادك؟ قلت له إلى (بور) لاستبدال الطبيب الموجود هناك وكان يعرفني من الخرطوم قال لي: يادكتور أنا القائد العسكري بالمنطقة لا استطيع الدخول إلى بور إلا (بطوف) وأنت تريد ان تدخل بزوجتك وطفلك إلى بور؟ قلت له ان تعليمات الوزارة أن أتوجه إلى بور. قال لي: وان تعليماتي هنا كحاكم عسكري أن تبقى هنا ولا تتحرك إلى أي مكان آخر.

و ذهبت مع الفوج الى داخل المدينه و نزلت في منزل (السستر الانجليزيه السابقه) وكان يزور جوبا في نفس الفترة الزميل الدكتور (باسيفيكو لاقو) من أبناء المنطقة وأحد زملائي في كلية الطب بجامعة الخرطوم والذي كثيراً ما كان يسخر من مشاركاتنا في مظاهرات الجامعة ضد الحكم العسكري وملاحقة الشرطة لنا في السكن الداخلي، وقد أصبح فيما بعد عضواً في مجلس السيادة في (حكومة الانتفاضة) ممثلاً لابناء الجنوب. وكان يزاملنا معه الدكتور (جستين ياك) والذي أصبح فيما بعد وزيراً للصحة بالاقليم الجنوبي بعد توقيع اتفاقية السلام في (اديس ابابا) والذي كان خير معين لي بعد عودتي من بريطانيا لانشاء قسم الطب النفسي في مدينة كوستي عام ١٩٧٤، إلا أنه هجر السودان بعد فض الاتفاقية وانضم إلى حركة التمرد مع العقيد جون قرنق.

في إحدى المرات ونحن نتناول الافطار في منزلي في جوبا سألني الدكتور باسيفيكو في سخريه: يازين أنت الآن في الجنوب هل وجدت أي شيء مشتركاً؟ وبقدر ما استفزني السؤال بقدر ما فتح عيوني على التأمل في قضية الحرب الدائرة وقد كانت (توريت) أيضاً محاصرة وتقودني هذه المفارقة إلى ماحدث في محادثات اتفاقية (إطار السلام) في ماشاكوس في كينيا عند ما انسحب وفد السودان من جولة المحادثات لأن الحركه أخلت بالاتفاق وهاجمت توريت والتي كانت محاصرة في عام ١٩٦٨ قبل التصعيد والتدويل للقضية ودخول عناصر أُخرى طرفاً في الصراع.

واذكر انني في زيارة خاصة للخرطوم قبل سنوات قليلة اجريت لقاء صحفي مع صحيفة (ألوان) وسألنى الصحفي عثمان شبونة عن رأيي في مسيرة السلام فقلت له: اذا كنا قد خسرنا كل شيء على مدى نصف قرن ونحن نخوض غمار الحرب فماذا يضيرنا إذا أخذنا استراحة محارب في طريق السلام؟ أخشى أن تأخذنا العزة بالاثم في معركة الشمال والجنوب لنصحو

ونجد أن السودان كله قد ضاع منا وآمل ألا تصدق نبؤتي وأن يتحقق حلم السلام قبل وصول الكتاب إلى يدي القاريء.

عوداً إلى جوبا والمعارك الطاحنة حولها زارنا كبير الجراحين الدكتور ابراهيم المغربي وكبير الاطباء النفسانيين الدكتور طه بعشر لاختيار اطباء للجلوس لامتحانات التخصصات ذات الصلة واذكر واقعة طريفة حدثت بين الدكتور المغربي والدكتور عبد القادر مرسال في قسم الجراحه وقد كان من المتقدمين للتخصص في الجراحه العامة إذ قال له الدكتور المغربي: أنت كبير ياعبدالقادر فقال له الدكتور عبدالقادر: أنا جيتكم كده ... ماكبرت عندكم يا(بروف) فضحك الدكتور المغربي وطلب منه كتابة طلب تقديم بالتلغراف للوزارة بالخرطوم، وعندما سألت الدكتور بعشر عن موقفي بعد استيفاء شروط الوزارة بالخدمة في مناطق الشدة ونجاحي في الامتحان السابق اجابني بأن الوزارة قد ألغت نتيجة الامتحان السابق وعليَّ أن اقدم بالتلغراف للحضور للامتحان القادم خاصة وأن المتقدمين الاوائل ذهبوا إلى تخصصات اخرى فأيقنت أن امامي مشواراً طويلاً آخر لامشيه قبل الوصول إلى معشوقتي المتمنعه(البعثه) خاصة وان مجموعة من الزملاء والذين كانوا مترددين في خياراتهم حزموا امرهم و سافروا إلى بريطانيا.

فقد كان الدكتور الضو مختار صاحب الانامل الذهبية و بيكاسو المشرحة وجراح المستقبل قد قبل دعوة البروفيسور داوود مصطفى وذهب إلى الباطنية رغم شدة حذقه ودقة أنامله في الجراحه والدكتور أحمد سراج الدين (جالينوس) الدفعة قد ذهب إلى دهاليز الجراحة رغم حدة ذكائه وقلة صبره وكنت الوحيد الذي خرج من بوابة كلية الطب إلى (عيادة بعشر) مباشرة ولم يجرب بدائل أُخرى ولم يبحث عن خيارات رغم تعدد الطرقات.

■ مركز صحي الخرطوم - الخرطوم

فرجعت إلى الخرطوم وقد هيأت نفسي إلى خوض تجربة جديدة في سبيل السفر إلى لندن وحتى هذه اللحظة لم يتبين لنا و لم نكن نعرف أن كل الطرق تؤدي إلى لندن من غير بوابة الوزارة ولكننا جيل نشأ على طاعة أولي الأمر واستسلم لحكم الوظيفة. عندما وصلت الخرطوم تم نقلي إلى (مركز صحي الخرطوم) خلف مبنى (سينما كلزيوم) آنذاك و قد كان من الطبيعي أو المؤمل أن أبقى في العيادة النفسية في إحدى مدن العاصمة المثلثة ولكنها كانت مؤشراً مهماً إلى ما يمكن أن تؤول إليه الامور وأشبه بمحاولة ابعاد عن البرنامج التلفزيوني (أضواء على النفس البشرية) طوال فترة عودتي من الجنوب. ويشاء حظي العاثر أن تصيبني التهابات في الجيوب الانفية وكان

يسكن جاراً لي صديق العمر و زميل الدراسة الدكتور فيصل علي صبره والذي كان يعمل نائباً مع الجراح الكبير الدكتور عبدالله سعد رئيس قسم الأنف والأذن والحنجرة بمستشفى الخرطوم فأخذني إليه فأجرى لي عملية صغيرة واعطاني اجازة مرضية. وفوجئت بعد عودتي إلى العمل أن الوزارة لم تعتمد الاجازة المرضية وشكلت لجنة طبية لاعتماد الاجازة من كبير الأطباء الدكتور عبد الرزاق المبارك وكبير الجراحين الدكتور عمر محمد بخيت والجراح الشهير الدكتور أحمد عبد العزيز و قد ادهشني ولكن اسعدني هذا الاهتمام وهذا العقد الفريد من الاطباء وزالت دهشتي عندما علمت أن الامر صادر من وكيل الوزارة الدكتور عثمان عبد النبي فوقعت بين مطرقته وسندان الدكتور عبد الله سعد.

لاشك أن الذين عاصروا تلك المرحلة يعرفون طبيعة هذه المعركة والتي لم تنته حتى بعد صدور قرار اللجنة باعتماد الاجازة المرضية والتعليق الحاد على مثل هذه التصرفات بين الزملاء. و كانت النتيجة أن ظل ملف خدمتي رهين ادراج مكتب الوكيل في الوزارة وبقيت في المركز الصحي أمني النفس بالآمال..فكتبت قصيدة (صفحات من مذكرات طبيب) المنشورة في ديوان (مع رياح العودة) ص٢١٨.

وهنا قررت الذهاب إلى أب الجميع البروفسير التجاني الماحي وكان قد تماثل للشفاء واعتكف في منزله بالخرطوم بحري يحاول جاهداً كتابة مذكراته وهو ينصحني بأن اكتب ما استطعت إلى ذلك سبيلاً واترك الحكم للآخرين وقد عملت بهذه النصيحة منذ أن شعرت بأن قلمي يقوى على الكتابة وان عندي ما أقوله وعندما حدثته بمضوعي طلب مني الحضورإليه في اليوم التالي لنذهب سوياً إلى سعادة الوكيل وعندما وصلنا إلى مكتبه بادره بالتحية قائلاً: يا ابني ماهي مشكلة هذا الطبيب؟ إذا لم تكن الوزارة راغبة في ابتعاثه فسوف نحوله إلى الجامعة ولاتزر وازرة وزر أُخرى (فاعتذر له في أدب جم ببطء الاجراءات ووعده بالحل وانصرفنا).

في بداية عام ١٩٦٩ ورغم انتقالي إلى عنبر النفسية في مستشفى الخرطوم إلا أن اجراءات البعثة ظلت مجمدة في مكتب الوكيل فقررت الا أجمد نشاطي في الإذاعه والتلفزيون والصحافة ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ولن يحيق بنا ظلم أكثر مما جرى.

في إحدى الامسيات ونحن نجلس في نادي الأطباء قابلني الدكتور موريس سدرة كبير الجراحين بمستشفى ام درمان وسكرتير نقابة الاطباء وسألني لماذا لا تشتكي لنقابة الاطباء؟

فقلت له لا أريد أن اسجل سابقة في مهنتى فقال لي : ألم يسجل هؤلاء سابقة في مهنتهم؟ وعندها ادركت البعد الآخر للمسألة وان مشكلتي اشبه بالحجر الذي القي به في لجة الماء فانداحت منه دوائر كما قال الشاعر ابن الرومي في وصف الخباز:

ان أنسى ما أنسى خبازاً مررت به — يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة — وبين رؤيتها حوراء كالقمر
الا بمقدار ما تنداح دائرة — في لجة الماء يلقى فيه بالحجر

في مايو ١٩٦٩ فوجئنا بالانقلاب العسكري بقيادة العقيد جعفر محمد النميري ومجموعة الضباط الاحرار والذين كنت أعرفهم جميعاً معرفة شخصية وكانت تشكيلة الوزارة تضم الدكتور موريس سدرة وزيراً للصحة وكان الدكتور عثمان عبدالنبي والدكتور طه بعشر مع وفد في زيارة رسمية للقاهرة ولعل أول مافعله الدكتور موريس أن اخذ ملف خدمتي من السيدة (جورجيت) سكرتيرة الوكيل ليطلق سراح بعثتي إلى لندن لابد هنا من وقفة مع التاريخ....كان من الطبيعي بعد هذا المشوار الطويل من المعاناة أن اهلل لانقلاب مايو كما لم يهلل احد وأن أحتفي به حفاوة الطليق الذي كسر قيده من السجن الطويل وفرحة المظلوم الذي استرد حقوقه الضائعة في تحقيق حلمه الذي طال الانتظار إليه بعيداً عن كواليس السياسة وكاتماً صرخة الفنان الرائع محمد وردي

(أصبح الصبح فلا السجن و لا السجان باق)

كانت نابعة من قلبي فقط لامن قلوب الآخرين كما اعتذر إلى الملايين ولا أخالني إلا أحد هؤلاء.

فالحق يقال لم اكن أعرف هوية سياسية للانقلاب فمعرفتي الشخصية للعقيد نميري رجلاً شجاعاً وأخاً شهماً وضابطاً انقلابي النزعة والتفكير ورفيقه الرائد الرشيد نور الدين ثوري الفكر انصاري التوجه قيادي الميول وصديقه الرائد فاروق عثمان حمدالله سياسي وثائر ومفكر والرائد أبوالقاسم هاشم عشت معه في حامية جوبا فلم اشتم فيه رائحة سياسية والرائد زين العابدين محمد عبدالقادر عرفته في اوساط الاذاعة والتلفزيون بحكم علاقاتي الواسعة مع الفنانين ولم اعرف له ميولاً سياسية واضحة واذكر انني التقيت به في نادى الفنانين عشية الانقلاب ومعه الموسيقار موسى والفنان صلاح مصطفى ودعاني إلى حضور احتفاله بمولودته الجديدة واذكر من عوامل الجذب في اتجاه الانقلاب وجود الصديق الحميم والاديب العظيم الراحل العميد عمر الحاج موسى والذي كانت تربطني به صلات ادبية وعلاقات ودية كانت خير

معين لي في حياتي العملية وكان هذا المزيج المتباين من الاتجاهات الفكرية والثقافية اكبر دليل على عدم وضوح الهوية السياسية للانقلاب.

ولعل الدهاليز السياسية المختلفة التي دخل فيها الانقلاب والمسارات المتعرجة التي مشى فيها لاحقاً تؤكد هذه الحقيقة، ولاأعتقد أن مؤرخاً في حجم المؤرخ البريطاني الشهير (أرنولد توينبي) كان يمكنه أن يتنبأ بمسيرة انقلاب مايو ولقد شاهدت و سمعت في اللقاءات التي تتم في مكتب الاخ عمر الحاج موسى وزير الدفاع والشخصيات التي تزوره مستفسرة أو مستنكرة ان ثمة خللاً في تركيبة مجلس قيادة الثورة ينم عن فقدان الوحدة الفكرية التي تربط نسيج هذا التحالف و كان عمر من أول المتبنين لهذا الرأي.

فإن كان الجانب الشخصي قد طغى على الجانب السياسي في نظرتي وتعاملي مع الانقلاب وبعد أن انطفأت جذوة النارالمشتعلة من حريق البعثة فإن اندلاع النيران العديدة من دموية الانقلابيين جعلني اندم على ماقلته فيه في ديوان (مايو والاطفال) وديوان (مع رياح العودة) واشطط فيما كتبت عنه في ديوان (نقوش على البحر) وديوان (اشباح المدينة).

بعدها انتقل الاخ عمر الحاج موسى إلى وزارة (الارشاد القومي) وكتب لي مقدمة ديواني (مع رياح العودة) وطلب مني المشاركه في الثورة قبل سفري إلى لندن في منصب مدير الإذاعة والتلفزيون خاصة وانني صاحب اهتمامات ادبية وثقافيه وتربطني صلات قوية بالوسط الفني والاعلامي فقلت له: (ان كنت تريد مساعدتي فعجل لي في اجراءات بعثتي وقد فعل مشكوراً.

وعندئذ وبعد هذا الماراثون الطويل قررت أن أخذ فترة استجمام، لم استمتع بها منذ بداية فترة الامتياز فذهبت في اجازة ترويحية إلى مصيف أركويت وتشاء الصدف أن يحل عليها ضيفا الرئيس نميري وينزل في قصر الرئاسة مع رئيس افريقيا الوسطى(فيديل بوكاسا) وقد علم من الصديق الرائد منير حمد سراج بوجودى في المصيف فأرسل في طلبي فذهبت للتحية والمجاملة وفي اثناء الحديث سألني لماذا رفضت المشاركة في الثورة وقد اشترك معنا رئيسك الدكتور طه بعشر و أنا سعيد جداً بذلك فقلت له :(أنا لم أرفض ولكنني مرتبط ببعثة دراسية في لندن) فقال لي كيف أعطوك اجازة وقد اوقفنا كل الاجازات وطلبنا من الجميع العودة إلى العمل؟ وهنا ايقنت أنني في مواجهة عاصفة قد تنسف كل الجهود التي بذلت في تذليل عقبة السفر خاصة وانني اعرف طبيعة الرئيس نميري المتقلب المزاج ولم ينقذني إلا صوت هاتف

يناديه فهب واقفاً وطلب من الرائد منير حمد أن يتصل بالرائد أبوالقاسم هاشم في الخرطوم ويطلب منه أن يذيع بياناً في إذاعة العاصمة يعلن نبأ اعتراف جمهورية افريقيا الوسطى بحكومة المانيا الشرقيه، وقد كان فرحاً مبتهجاً فأنتهزت هذه النشوة وتسللت مستاذناً في العودة إلى مقر الفندق وعندما عدت إلى غرفتي طلبت من زوجتي الاستعداد للعودة إلى الخرطوم.